قراءة في كتاب: (الحسين يكتب قصته الأخيرة)
للسيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره

الأستاذ المساعد الدكتور
هادي عبد النبي التميمي
الكلية الإسلامية الجامعة ـ النجف الأشرف

قراءة في كتاب: (الحسين يكتب قصته الأخيرة) للسيد الشهيد محمد باقر الصدر قدس سره

الأستاذ المساعد الدكتور
هادي عبد النبي التميمي
الكلية الإسلامية الجامعة ـ النجف الأشرف

قراءة موجزة في حياة السيد الصدر قدس سره :

أشرق السيد محمد باقر بن السيد حيدر بن السيد إسماعيل عن دنيا الناس في أحد بيوتات الكاظمية، وفي أُسرة آل الصدر العريقة في يوم الأحد ٢٥ ذي القعدة ١٣٥٣هـ الموافق ٢٨ شباط ١٩٣٥م.

ونشأ في رعاية أخيه الأكبر (السيد إسماعيل)، وأخواله من آل ياسين لأنه فقد والده ولم يبلغ الثالثة من عمره.

وقد لفت ذكاءه ونبوغه أنظار الهيئة التدريسية في مدرسة (منتدى النشر الابتدائية) التي إلتحق بها على الرغم من قِصر الفترة التي أمضاها فيها والتي لم تتجاوز ثلاثة أعوام. ثم انتقل إلى النجف الأشرف في سن الثالثة عشرة ليبدأ مشوار تعليمه الديني في حوزتها العلمية، ولينهل من حلقات الدروس وموائد العلم والمعرفة المنتشرة في الصحن الحيدري الشريف، والمساجد الكبيرة، والمدارس الدينية بها. فبدأ بمرحلة المقدمات ثم مرحلة السطوح ومرحلة البحث الخارج، وكان يتجاوز هذه المراحل في زمن قصير يتناسب مع عبقريته وذكائه الاستثنائيين.

عُرف السيد الصدر بالانفتاح الفكري الذي أتاح له الإطلاع على علوم دقيقة ومعمقة، واتضحت معالم عبقريته المبكرة في ثلاثة اتجاهات هي:

- ♦ قدراته الخلاّقة على توليد الأفكار الجديدة.
- ♦ توفره على معارف غريبة عن النجف الأشرف.
- ♦ انجازه الفكري المبكر.

ترك السيد الصدر على مدى عمره القصير (٤٥ عاماً) عدداً من المؤلفات المهمة منها: (الأسس المنطقية للاستقراء)، و(اقتصادنا) و(فلسفتنا) وغيرها فضلاً عما أنجزه في مجال التاريخ بدءاً من (فدك في التاريخ)، وعدد من المحاضرات التي طُبعت بعنوان: (أهل البيت تنوع أدوار ووحدة هدف)، وما نُشر ضمن كتابيه المدرسة القرآنية والمدرسة الإسلامية في مجال السنن التاريخية. وقد أراد من خلال نتاجه أن يطرح الإسلام مفهوماً عملياً وسلوكاً متميزاً عند الفرد، فتميز نتاجه بالجانب الهدفي، وترفعت لغته وأسلوب كتابته عن الاستفزاز والنبرة الآمرية، واتجهت إلى اللغة المسؤولة التي تعبر عن الفكرة والمضمون بأعلى شفافية، وقد دفعت شخصيته الفذة ومؤلفاته المبتكرة ما يربو على الألف مصدر كتب مؤلفيها عنه وعن عطاءه الفكري فيها.

دخل السيد الصدر الميدان السياسي مدججاً بسلاح الفكر والمرجعية التي تزعمها؛ إذ لم يكن المثقف العالم دون العمل، ولا المنظر دون التطبيق، بل كان إنساناً رسالياً حركياً عاش همّ الرسالة، وهمّ الحوزة، ومحنة العراق، ومحنة الإسلام، في ظل الحكم البعثي البغيض، فاستطاع أن يخلق اهتزازات داخلية في وجهه، فأقدمت السلطة على اعتقاله عدة مرات آخرها سنة ١٩٨٠ وأعدمته ليعلو أعتاب التاريخ، ويرتقي القمة وهو يتلذذ بالشهادة، ويُسمع رسالته الخالدة لشعبه: ((... أني صممت على الشهادة.. وان أبواب الجنة قد فُتحت لتستقبل قوافل الشهداء حتى يكتب الله لكم النصر...))[1].

قراءة في كتاب (الحسين يكتب قصته الأخيرة):

لقد وجد السيد الصدر في ثورة الإمام الحسين عليه السلام ضالته المنشودة لتوظيفها في التعامل مع الواقع الاجتماعي والسياسي في العراق آنذاك فحاول أن يستثمر المؤثرات الروحية لهذه الثورة وسيلةً للإصلاح الأخلاقي والنفسي للمجتمع من جهة، ولتأشير مساوئ النظام البعثي الحاكم برمزية عالية من جهة أخرى، فكان هدفه من محاضرتيه عن التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقية الهزيمة - التي صارت مادة هذا الكتاب - أن يُسجل ((نُكرانه للخوف، ودعوته للأمة إلى التغلب على هذه الصفة، وتمسكها بالرفض وعدم الإستسلام والإنقياد لشمولية السلطة وإستبدادية الطغاة، مع ما أراد لها من الاستعداد والقدرة في التطلع نحو الانعتاق والتحرر والممارسة لحقها في العيش الكريم))[٢].

وكتاب (الحسين يكتب قصته الأخيرة)، هو في الأصل نص لمحاضرتين ألقاهما السيد الصدر في النجف الأشرف بتاريخ ١٦ و ١٧ صفر سنة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م قررهما السيد كاظم الحسيني الحائري ودمجهما في محاضرة واحدة بعنوان (التخطيط الحسيني لتغيير أخلاقية الهزيمة)، ثم حقق هذه المحاضرة وعلق على مضامينها بشيءٍ من التفصيل والتحليل الأستاذ صادق جعفر الروازق وطبعت بعنوان جديد هو (الحسين يكتب قصته الأخيرة) لأن المحقق وعدد من العلماء وجدوا ((كثيراً من الشبه بين واقع المحاضرة الحسينية ومعطياتها على واقع السيد الصدر رضي الله عنه))[٣].

فكم من مواقف الشبه والامتثال قد سجلت هذه المحاضرة بينه وبين الإمام الحسين عليه السلام، وكم من صرخات وإستغاثه قد طالب فيها لنصرته وعلى أن لا يُترك كما تُرك الإمام الحسين عليه السلام[٤] من قبل.

وقد شغلت محاضرة السيد الصدر (٦٣ صفحة) من مجموع الكتاب الذي

وصل إلى حوالي ٢٥١ صفحة إذ اشتمل على مقدمة المحقق، وبحث مشوق عن مفردة الموت وتعريف بالسيد الصدر وسيرته الطاهرة من ولادته حتى إستشهاده، وملحقاً بأسماء الشهداء من أهل البيت عليهم السلام وأصحاب الإمام الحسين عليه السلام الذين استشهدوا في طف كربلاء مع تراجمهم، وبحثاً على هامش التحقيق بعنوان: (النفعية والقيمية مصاديق من الطف)، ثم خاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع، وكل ذلك من عمل الأستاذ المحقق.

لم تكن محاضرة السيد الصدر محاضرةً تقليدية تسرد واقعة الطف سرداً تاريخياً عاطفياً لتستدر عبر أحداث المأساة عبرات المتلقين، وإنما هي قراءة واعية غاصت بعيداً في مغزى التخطيط والاعداد الرسالي الذي تبناه الإمام الحسين عليه السلام، وإقتنصت عبر التحليل العقلي المتوازن لحيثيات الحركة المباركة وسائل وأساليب التثوير والتغيير الحسيني، وآليات القدح العاطفي الذي استمر على مر التاريخ ولكل أجيال الأمة الإسلامية. أنها قراءة الصدر الذي تضمخ بالدم الحسيني الطاهر، المنوّر، النقي ليؤجج مشاعر الناس ويخلق هزة ضمير أخرى.

بدأ السيد الصدر بالتأكيد على أن الإمام الحسين عليه السلام قد وقف ليعالج حالة انعدام الإرادة عند الأمة الإسلامية بالتضحية، وأراد أن يحول أخلاقية الهزيمة إلى أخلاقية الإرادة والتضحية، إلى الأخلاقية الإسلامية الصحيحة التي تمكّن الإنسان المسلم من أن يقف موقفه الايجابي وفقاً لما تقرره الشريعة.

واستعرض السيد الصدر (مشاهد) موت الإرادة في المجتمع الإسلامي وكان أول مشهد التقطه من أوراق التاريخ هو المشهد الذي مثله عقلاء المسلمين من ذوي الحل والعقد، الذين ألقوا على مسامع الإمام الحسين عليه السلام النصائح بترك الثورة على يزيد، ومَنوّه بالسلام، وخوفوه الموت، فرأى في تلك النصائح تعبيراً عن الانهيار النفسي الكامل الذي شمل الزعماء فضلاً عن

الجماهير التي كانت تعيش هذا الانهيار مُضاعَفاً في أخلاقها وسلوكها وأطماعها ورغباتها.

وعرج السيد الصدر على أمثلة أخرى لتتضح الصورة مثل موقف عبد الله ابن الحر الجعفي، وموقف زعماء البصرة، وموقف عشيرة بني أسد، وموقف المتخاذلين من أهل الكوفة من رسول الإمام الحسين عليه السلام قيس بن مسهر الصيداوي الذي قتله عبيد الله بن زياد، ومحنة مسلم بن عقيل وهانيء بن عروة، وفي كل هذه المواقف يثبت حالة الخذلان والهزيمة النفسية للمجتمع الإسلامي، وأشّر السيد الصدر مظاهر التناقض الذي كان يوجد بين قلب وعواطف الأمة وبين عملها وعلق ساخراً ومفسراً لكلمة الفرزدق المشهورة التي قالها للإمام الحسين عليه السلام واصفاً بها حال قتلة الإمام الحسين عليه السلام ابان الثورة بأنهم ((قلوبهم معك وسيوفهم عليك))، فلم يجد فيها تناقضاً وإنما مصداقاً لما توصل إليه من تحليل حول وضع المجتمع الإسلامي آنذاك فقال: ((لا تناقض لأن هذا الشخص الذي لا يملك إرادته يمكن أن تتحرك يده على خلاف قلبه وعاطفته))[٥].

ولهذا فإن أولئك القتلة كانوا يبكون وهم يقتلون الإمام الحسين عليه السلام لأنهم كانوا يقتلون أملهم الوحيد للتخلص من الظلم القائم.

لقد بثّ السيد الصدر ومن هذه النقطة بالذات مشروعه التوعوي للأمة، ونبهها وأهاب بها أن لا تكون الأمة العاطفية غير الواعية، التي تبكي منقذها وهي تقتله لتغفر ذنوبها، ودعاها إلى أن تعيش مواقفها التاريخية بإيجابية بتدبر وتعقل، وبإرادة وعزيمة وكرامة وتضحية.

لقد أثبت السيد الصدر بشواهد تأريخية منها: مكاتبة الإمام الحسين عليه السلام لزعماء العراق يعلمهم بقرار الخروج على سلطان بني أمية، ورفضه لبيعة يزيد

في المدينة، اثبت أن ثورة الإمام الحسين عليه السلام ما كانت تهوراً أو تسرعاً في التفكير والعمل، ولا هي إستجابة لردود فعل عاطفية من الإمام الحسين عليه السلام تجاه الأمة بل كانت ثورة مخطط لها بدأ بها الإمام الحسين عليه السلام، وبدأ من خلالها بتحريك الأمة نحو خطته، وخط عمله. لكن أخلاقية الهزيمة وفقدان الإرادة تجعل الناس ينظرون إلى العمل الشجاع على أنه تهوراً، والتفكير في شؤون المسلمين استعجالاً، ونوعاً من التسرع.

لقد تأمل السيد الصدر خطوات الإمام الحسين عليه السلام في ثورته المباركة، وطرح في سياق تحليله لهذه الخطوات تفسيراً نفسياً غير مسبوق أسماه (مفهوم مجاملة الأخلاقية المهزومة)، ورأى أن الإمام الحسين عليه السلام كان يعمد إلى ذلك لكي لا يستفز تلك الأخلاقية، وليحتفظ عمله بطابع المشروعية في نظر المسلمين الذين تبدلت مفاهيمهم عن العمل الإيجابي، وللتأثير في ضمير إنسان هذه الأمة، وليحولها بالتدريج إلى أخلاقية التضحية.

وكانت هذه (المجاملة) تتخذ سبيلها عبر طرح شعارات واقعية مثل: (حتمية القتل: بتأكيد الإمام الحسين عليه السلام على أنه سوف يُقتل، وان بني أمية لن يتركوه ولو كان معلقاً بأستار الكعبة؛ فالأفضل أن يغادر مكة إلى العراق كي لا تنتهك حرمتها، وشعار غيبيّة التحرك (التي أوحى الإمام الحسين عليه السلام من خلالها أن هناك قراراً من أعلى (الله عزّ وجل - النبي صلى الله عليه وآله) يفرض عليه أن يضحي، وأن يموت وأن يغامر بالخروج إلى العراق)، وشعار (إجابة دعوات أهل الكوفة: فعلى الرغم من أن الإمام الحسين عليه السلام هو الذي بدأ بمراسلة أهل العراق إلاّ أنه حاول أن يبرز موقفه على أنه إستجابة لدعوات أهل الكوفة لكي يُسبغ على العملية طابع المشروعية في نظر أولئك الذين يحبون السلامة ويرون التضحية لوناً من ألوان التهور واللا معقولية). فضلاً عن أنه رفع شعار (ضرورة الثورة على السلطان الجائر) وهو شعار واقعي حيّ أراد الإمام

الحسين عليه السلام من خلاله أن يجعله أساساً للأخلاقية الجديدة التي كان يبنيها في كيان الأمة.

ولم يفت السيد الصدر التدبّر في أساليب الإمام الحسين عليه السلام أثناء واقعة الطف إذ رأى في عدم بدء معسكر الإمام الحسين عليه السلام بالقتال على الرغم من أن المنطق يقول: المفروض أن الثائر هو الذي يبدأ الهجوم على السلطة القائمة، إلاّ أن السيد الصدر رأى في ذلك أسلوباً حسينياً لكسب أخلاقية الهزيمة، فضلاً عن أسلوب حشد المؤثرات العاطفية المتمثلة بإدخال الإمام الحسين عليه السلام أولاده وأطفاله ونسائه في المعركة، بل ما ورثه من آثار رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ تقلد بعمامة النبي صلى الله عليه وآله وتقلد سيفه لكي يهز ضمير المسلم المهزوم الذي تميعت إرادته، واستطاع بهذا التخطيط الدقيق الرائع أن يهز ضمير ذلك المسلم، فكان من نتائج محنة سيد الشهداء عليه السلام حلول مفهوم التضحية محل مفهوم الهزيمة كما حدث في حركة التوابين فيما بعد الذين لم يروا لهم هدفاً سوى التضحية.

ومما رصده السيد الصدر من ثمرات حركة الإمام الحسين عليه السلام تحول موقف المرأة المسلمة ففي الوقت الذي كانت تأتي - أيام الثورة الحسينية - لتنتزع زوجها وأباها وأخاها وتقول: مالك وعمل السلاطين، ويتميع الرجل المسلم لندائها، نجد أنها بعد شهادة الإمام الحسين عليه السلام تقف تلك الوقفات العظيمة على طول الخط... فهي نفس المرأة التي أحبطت مؤامرة إمارة عمر بن سعد على الكوفة حين هلاك يزيد، وكانت تصيح: (أن قاتل الحسين لا يمكن أن يكون أميراً على الكوفة)[٦].

إن وضوح الرؤية الحسينية هو الذي جعل المسلمين يدخلون بالتدريج إلى آفاق من الأخلاقية التي تختلف عن أخلاقية الهزيمة، هذا الوضوح هو الذي هزّ ضمير الإنسان المسلم لأجيال طويلة. وأن تضحية الإمام الحسين عليه السلام

العظيمة تدعو الإنسان المسلم اليوم إلى أن يعيش مفهوم التضحية لأجل رسالته لكي يكون ثمن دم الإمام الحسين عليه السلام حياً على مرّ التاريخ كما قال السيد الصدر في كتابه (الحسين يكتب قصّته الأخيرة).

هوامش البحث

(١) للاستزادة عن حياة السيد الصدر ، ينظر: الحسيني ، محمد باقر الصدر حياة حافلة وفكر خلاّق ، ص٣٤ - ٢٣٠ .

(٢) الروازق ، مقدمة تحقيق كتاب الحسين يكتب قصته الأخيرة ، ص٨ - ٩ .

(٣) المصدر نفسه، ص٥ .

(٤) المصدر نفسه ، ص٢٣٤ .

(٥) الصدر ، الحسين يكتب قصته الأخيرة ، ص٧٩ .

(٦) المصدر نفسه ، ص٧٧ - ٧٩ .